النظريات الفنية

مسائل الفن

والجمال في العصر الحديث [1]

للفيلسوف الفرنسي « غيو Guau »

مقدمة

يريد العلم — في عهدنا هذا — ان يهيمن على المنازل العقلية ولقد كانت الانسانية حتى الآن تعتمد في حياتها على ثلاثة أشياء : الدين والاخلاق والفن . أما العلم فقد عدّل مسائل الدين وهو يحول الآن قواعد الاخلاق . ولا يمكن ان يبقى مقيداً أمام الفن الذي هو آخر معقل « للسيكولوجيا » والباطنة . ان الفنانين العظماء — في كل زمن — كانوا يؤمنون بجدة الفن وعمقه . بل يرون انهُ أكثر حقيقة من الحقيقة نفسها . فكانوا يجهدون النفس ، ويجرعون الصاب في سبيله . وقد يصبح احترام الفن — على هذا الشكل — عند أكثر الفنانين تصوفاً نوعاً من العبادة . فان (بيتهوفن) مثلاً وهو يسمع إحدى أناشيده يخيل اليه أنهُ يسمع الآلهة تنشده بكلمه . والآن نحن بعيدون عن هذا النوع من الافكار اذا ناقشناها بقواعد العلم للفن

فأول قاعدة علمية فلسفية تفقد الفن — كما تفقد الجمال — الى لعبة بسيطة في أنفسنا . ولكن هذه القدرة لا نزعم أنها تقدر على تهديمه وانما تتركه يحتل جزءاً كبيراً في حياة الانسان لانهُ ثمرن — ولوكان باطلاً — تقوم به أجزاؤنا الرئيسية . ولكن ماهي حدود هذا المذهب؟ هذه مسألة يجدر النظر فيها

إن أصل الفن — في نظرنا — هو في الحياة ذاتها . فله من الجد ما للحياة ، وغايتنا من فصولنا هذه ان نبرز هذه الناحية الجدية من الفن وخاصة الشعر في أصله وعمقه ، وفي تطوره الآني ، وفي أسلوبه

أن مالا يصل الى الحياة نفسها يظل غريباً عن الجمال ، لان غاية الفن الأسمى هي ان تجعل القلب الانساني يخفق بالفن يجب ان يمتزج بوجود الانسانية ، بأخلاقها وعاداتها . وما عسى أن يبقى

---

(١) نقلها خليل هنداوي وهي الحلقة الاولى من سلسلة طريفة

لنا من اعتقاداتنا الدينية وأخلاقنا ؟ قد لا يبقى الا جزء يسير . واذا سألنا ما عسى يبقى من فنوننا من الموسيقى والتصوير ، وخاصة من هذا الفن الذي يحتوي على فنون مختلفة وهو الشعر . قد يكون الجواب . . . انهُ سيبقى منهُ كل ما هو خير وأكثر عمقاً من غيره . . .

« اصل الفهم والشعر »

لقيتُ في احد أيامي ولداً يلعب في حجرة ، وقد لمعت شعاعة من ضوء الشمس من خلال نافذة مغلقة . يعدو الولد نحو هذه الشعاعة اللامعة التي تنفذ في الهواء ، مجرباً ان يقبض عليها بيديه اما الشعاعة البيضاء فقد كانت تفر ولكنها كانت في عينيه ؟ واري البشرية قد قامت — في اميالها — بمثل هذه . فبعد أن كان الجمال والخير معتبرين في الزمن القديم كحقائق من وراء الطبيعة دخلا في انفسنا ، وما هما — في نظر علمائنا المحدثين — الا نتاج بنات عقولنا . فالجمال مثلاً يعود الى نوع من السرور يرتبط كشكل سرور بالحياة . فاحذف انت الكائنات الحية من الوجود تحذف منهُ الجمال . كما انك اذا حذفت العين حذفت النور والالوان ... وكل شعر الطبيعة يقوم في رؤوس البشر

و « كانت » كان يعود بفكرة الجمال الى فكرة النفع والمفاضلة ويرى — فيه — لعبة تقوم بها مخيلاتنا . وكذلك شيلر لا يرى فيه الا لعبة . فالفنان بدلاً من ان يتعلق بالحقائق المادية يلتفت اليها . والفن الاسمى هو حيث تبلغ اللعبة مداها ، وتلعب بكل اعماق وجودنا ، وهذا هو الشعر ! قال شيلر : ان آلهة الاولمبوس الذين انتفوا من كل حاجة ، وجهلوا العمل والواجب قد اشتغلوا بابتداع اشخاص من الناس ليتاح لهم ان يعبثوا بالاهواء البشرية . وهكذا نحن نمثل — في الدراما — فضائل وعيوباً واحوالاً ليست بأحوالنا

وقد لقي مذهب — كانت وشيلر — مؤيدين بين العلماء المحدثين . واخيراً جاءت مدرسة شوبنهاور معتبرة الفن كلعبة سامية ، هما ان تعزينا بعض لحظات عن بؤسنا وشقائنا . وان تهيء لنا منفذاً بواسطة الاخلاق

« غبطة الجمال وغبطة اللعب »

المعركة التي نشأت — للحياة — ببساطة تستحيل لعبة . وما الألعاب الاطفال الا رواية وسواس الانسانية ! المعركة هي اساس من اعمق أسس اللعب . وكل لعبة عند المتوحشين تسل على ان تتخذ شكل معركة ، وما رقصهم وغناؤهم الا مظاهر تمثل طبيعة المعركة . ولله در ابن كلثوم حيث يقول

كأن سيوفنا منا وفيهم مخاريقٌ بأيدي لاعبينا !

غبطة الالحان. الالوان والخطوط انما تنشأ عادة من لعبة يسيرة مرّت عليها خاصة من الحواس. فحين نسمع في البرية ناقوس النداء لا يكون هذا الدق لنا الا نداء. وباصغائنا اليه لا نطلبه ولا يكون هو غايتنا. وانما نصغي الى الطعام الذي يدعونا اليه. وعلى عكس ذلك اذا سمعنا قرع ناقوس فلندني احسسنا شيئاً يجبرنا على الانصات لهُ لأنهُ لا يخاطبنا ولا يدعونا الى شيء ولا يفتنا بشيء وهو خلال ذلك يبدو لنا انهُ جميل

يقول كانت «ان عاطفة الجمال هي اكثر تجرداً وبعداً عن الغرض من عاطفتي الخير والحق» ويتخذ سبنسر وداروين واقطاب المدرسة التطورية على جعل «الحاجة والمنفعة» اساساً أولياً للعواطف القائمة على الاخلاق. على ان العاطفة الفنية — على عكس ذلك — تقدر بانقيادها الى اللهو اكثر صفاء وتجرداً من كل فكرة متسلطة. ولجمال السلطة على الخير لانهُ متجرد من المنفعة. ويقول شيلر بهذا الصدد «انك لا تسمع صوت الرغبة في أغنية العصفور»

هذا ملخص مذهب هذه المدرسة في الجمال!

واما نتمم هذا المذهب فنقول: اذا لم ينفع الفن الحياة بأية وسيلة كانت فهو يساعدها بوجه عام. فالفن هو رياضة بدنية للقوة العصبية، رياضة بدنية للروح والعقل. وللفن دور كبير في الحياة الانسانية. وهنالك ادلة ساطعة وبراهين توحي الينا ان الفن سيمثل دوراً كبيراً في حياة الانسان وهو دور يسمو يوماً بعد يوم. وبامكاننا القول ان الفن — الذي هو وليد المخيلة والترف — سيغدو يوماً شيئاً ضرورياً للجميع، او نوعاً من الخبز اليومي

اما وان كل فن هو لعبة وليست كل لعبة فنا، فكيف نميز بينهما؟ يقول (كران اللين) ان اللعبة تكون تمريناً خالياً من الغرض كالسباق والصيد. اما الفن فهو ادراك الشيء ذاته كالتأمل في لوحة مرسومة او قطعة موسيقية. على ان هذا التعريف لا يفي بالغرض، اذ ينتج ان حركة ما لطيفة لا تبدو حقها الا لأعين الناظرين وهي لا تخلق اية غبطة فنية ان يقوم بها. والحركات الايقاعية والرقص تفقد بنفسها كل قيمة فنية. وبالايجاز ان تمييز الاحساس الصافي المحض — في العمل يكاد يكون محالاً. اذ كل قوة احساس تقتضي لعبة عضلات لا لعبة اعصاب فحسب. فالعين تلمح المدى بقوة عضلية. والاذن كذلك. ومن المحال ان نقسم وجودنا الى مقاطعات... وان نفرض أن الشيء الفني — فنيا — هو المتصل. على ان الأمر بعكس ذلك في الآثار الفنية اذ ان من غبطة الفن ان تمتزج فيها غبطة النظر والعمل. فالشاعر والموسيقي والدهان يحسون غبطة متفوقة في الابداع والتخيل وانتاج ما يتأملون فيه، وللناظر من ذلك نصيب. وتلاوة رواية ما معناها انك تعيش — بمقياس خاص — في جوها. فاذا تلونا اشعارها بصوت عالٍ استولى علينا لحنها وحركاتها واشخاصها وليس الممثلون في المسارح هم يمثلون وحدهم

ولكنَّ الناظرين يمثلون معهم ايضاً ادوارهم في الباطن . فاذا تزوج بطل الرواية وحظي بسعادته احسستُ ان من في بهو التمثيل يشاركون البطل في سعادته

ان الجمال يتجلى — قبل كل شيء — في عدم نفعيته . وفي نوع من المخادعة نأخذ بها انفسنا. ان الخمار يتسلى بإزميله ورخامه كالنحل يتسلى بكرة خشبية في اعماق قفصه . والاثر يبقى جميلاً بمقدار جماله، لا يتعلق بأية حاجة، ولا يحمل الينا رغبة ولا رهبة . والشيء الحقيقي الحي ينطوي بنفسه على جمال نفسه

هل غبطة الجمال

تضاد عاطفة المنفعة والحاجة والرغبة ؟

ان مجموعة أجزاء كل جسد بذهابها الى هدف ، تؤلف نظاماً كاملاً موزوناً وقديماً قرنوا الجمال الى النظام

في الاشياء الظاهرة يظهر ان الوحدة درجة اولى للجمال. ان رغبة ما او ان حبًّا ما يخلق في كل وجودنا اغراء طويلاً ممتدًّا جميلاً لا يلبث ان يندو فنيًّا بشرط ألاَّ تعدو الرغبة حادة

الجمال السامي بحسب نظرية كانت — هو جمال المرأة . على ان الصفات التي نراها اكثر بروزاً في المرأة هي أكثر الصفات تعلقاً بالرغبة والشهوة . فامرأة جميلة — عند رجل عامي — هي امرأة موثقة الخلق عبلة البدن ، شديدة ، ذات الوان ناعمة وشكل رقيق. هذه المرأة هي خير ما يروي الغريزة الجنسية

وهذا الوضع يتحول في الطبقات العليا ، حيث تعدو المرأة الجميلة في اعيننا هي المرأة التي تلائم اتفاس وجودنا الفردي، والعواطف والميول التي تشترك فينا في عصرنا . يقولون قديماً انهُ أحب ، أي صار عنده عاطفة مبهمة نحو يكمل معه طبيعيًّا او اديبًّا . فالحب اذاً هو في صميم الميول الفنية . أليس الاعجاب نفسه حبًّا يبدأ وينتهي بالحب ؟ اتقول ان حب امرأة هو الانتباه من رؤيتها جميلة ؟ ولهذا تجد الفن — عندنا — تطوراً في الحب . اي انهُ حاجة من حاجاتنا الضرورية . وتأمل العاطفة الفنية للجمال — مستقلة — عن الغريزة الجنسية وحركتها ، يبدو لنا شيئاً سطحيًّا يشبه تأمل العاطفة الخلقية من خلال الغرائز التأثرية حيث نرى — فيه — المدرسة الانكليزية اول اصل من اصول الاخلاق

ألا شكراً لله ! فالوردة التي ينشقها كثيرون لا تفقد أريجها . وظل حديقة باستطاعته ان يؤوي كثيراً من الاصدقاء . وساقية واحدة بامكانها ان تنفع غُلة عُطاش . وهواء نقي يستطيع ان يملأ صدوراً ، وأغنية في بهو واسع تهيج آذاناً كثيرة . ووجه جميل او قطعة حسنة تجلو عيوناً كثيرة دون ان تفقد شيئاً من رونقها

إن ما هو جميل هو مرغوب فيه أيضاً في الوقت ذاته . فالشعر في الاشياء — بحسب كلمة الفرد دي موسيه — يتألف من الخشية والرقة ، من الاضطراب والرغبة . فأي تأثير في يوقظ فينا جملة آماني ورغائب وحاجات بعضها ممكن سهلة

اذا تأثرنا بنشيد حربي رأيتنا نضطر ان نكون قاعدين او سائرين او راكضين ومقتتلين عن عدو لقتاله . وبعض جمل موسيقية فيها رقة الحب قد تولك القبلة على شفاهنا . ومن ذا يتلو أبيات « موسيه »

« لنرحل !
إننا وحدنا .
والعالم لنا :
هذه أيقوسيا الخضراء !
وايطاليا الشقراء
ومواطن اليونان . حيث يطيب الشهد ! »

من ذا يتلوها ولا يحس شوقاً الى هذه الاقطار الشعرية المجهولة يدفعه الى ارتياد هذه الآفاق الجديدة ؟

وهنالك غبطة في الرغبة نفسها . بل ان تأثير الرغبة يبقى في النفس أجمل من تلك الغبطة . ومن هنا منشأ الغبطات الكبرى في الشاعر الذي يتأمل ان يحيا في المرة الواحدة حياة كل الناس . وهو بهذا التأمل يحياها الى نقطة يقينية . على ان هذه الرغبة التي تتخدع كثيراً قد تولد أناساً . لأنها تظهر له مجد وهو يريد تحقيقها . والبأس الذي يسوق الفنان الى التشاؤم هو أنهُ يتمنى بدون اتزان ولا يقدر على اشباع أمانيه الا بصورة ضعيفة

هل تعاصر غبطة الجمال

مع عاطفة الحقيقة وعملها ؟

الفن هو عمل لا هوى ، ومن هذه الناحية هو رغبة لا غبطة فقط . وحاجة حقيقية لا لعبة ولهو

ما شعرت يوماً بسمو السماء الا بعد ان شققت طوداً عالياً حتى لأشعر بأني دخلت السماء واني انتصرت عليها في كل خطوة وجهد أبذله . ورغبة (اللانهاية) خيّل اليَّ أنها بُعثت فيَّ بدون انتهاء ، بل تيقظت في نفسي تيقظاً شديداً

ان تمثال (زهرة ميلو) يبقى سر روعته في رخامه وجموده . ولو ان عينيه الفارغتين امتلأتا

نوراً داخلاً ولو انه مشى الينا لانهى أمر هذه الروعة والاعجاب

ان تلفيق الوهم — دع عنك — انهُ يعد أن يكون شرطاً من شروط الحسن في الفن — هو تحديد له . الحياة او الحقيقة هي قاعدة الفن

هنالك بعض تشويهات تكون ضرورية للأثر الفني وتكون شرطاً من شروط حياته . وهذه تشبه تلك التجاعيد التي تلوح على وجوه المسافرين في الأقطار الشاسعة بفعل الحر او القر ، وفي ابطال الروايات يجب ان أرى فيهم شيئاً من العيوب والتشويه حتى يمكنني ان أؤمن بوجودهم ، لأن الضروري في الشخص المختلق هو ألا يظهر جميلاً او تيحاً فحسب ، بل يبدو انهُ موجود ! التهذيب هو الفن السامي الذي يؤثر في الكائنات الحية ، وليس له الا غاية واحدة هي انتاج الامثلة الكاملة ، وجعل الجميل اغنى جمالاً ، وسعادة . هذه غاية الفن ، وعمق كل فن يتجلى في الجنوح الى الابداع ، واذا الفنان استطاع ان يكون مبدعاً حقيقيًا فهو يريد ويحتج الى تحقيق الجمال والسعادة

اذا كان امامنا اثران فنيان متساويان في ابداعهما فنحن بحكم العادة أميل الى الأجمل ، ونجد الاجمل اغزرهما خيالاً وشاعرية

ان تقليد القبيح يبدو في الحقيقة تقليداً للجمال والنظام الباقي . التقليد يجنح الى ان يصبح ابداعاً وخلقاً . والوهم او الاختلاق يطفىء في الحياة . وفي النهاية نجد الحياة غاية الفن ، والفنان لا يختلق الا ليجعلنا نؤمن بأنه لا يختلق

شروط الجمال في الحركة

رأينا ان كل ما فيه جد ونفع رحقيقة وحياة يستطيع بعض شروط ان يكون جميلاً . الجميل يمكن ان يتحقق آنا في الحركات ، وآناً في الحواس ، وآناً في العواطف . واول شرط في الحركات هو القوة ، فنحن نحس سروراً فنيًا اذ نشعر بقدرتنا او حين نرى قوتنا او نرى غيرنا يمرن قوته . والصفة الثانية للجمال هي الرقة والايقاع والنظام ، اي ارتباط الحركة بوسطها وغايتها

ان الجمال السامي للحركات هو استمارة ، وهذا الجمال يهبط من الأعلى ، وفي جو الارادة والعواطف يجب علينا ان نحلق لنجد الى ذلك حلاً . النظر الى الطبيعة ، والتخيل انها جميلة هو تمثلها أنها حية ، والتخيل انها ممكنة هو تمثلها انها شكل انساني . وبالامكان ترديد كلمة (تيرانس) « اني لا اهوى الا ما هو انساني »

القوة اول جمال ، تنقاد الى حالة صغيرة من الخمور او ترتبط نفسها بالعواطف من اي نوع كالثقة بالنفس والجرأة . وهل الارادة الا القوة ؟

خذ تمثال « موسى » الذي مثل قامة مديدة وعضلات متصلبة . وما تمثال شمشون والبطل هرقل الا تمثال القوة والبطش والجمال. فالقوة التي كان يؤلهها الأقدمون كانت تعتبر الفضيلة الأولى ومصدر فضائل كثيرة . بل انها تحتل شيئاً فوق الطبيعة الانسانية ولهذا كانت تحترم . وكانت ذات قيمة فعالة . والنظام والايقاع يجعلان الحركة أكثر جلاء . أما العطف فهو يفرض حالة انفعال في العضلات ، ولا يمثل الحيوان ذلك الا في ساعة الراحة . اذا رأيت كلباً يلعب ويعبث فاعمل ضجة ما تر حالته تبدلت ، وعنقه تمددت وكل ما فيه من عضلات قد تحرك . وليس حالة غير حالته في هدوئه . وأخيراً ليس معنى العطف — دائماً — الا الاستسلام ، ولا يتم هذا الاستسلام الا في ساعة حب . ونقول مع (شيلنغ) ان العطف هو قبل كل شيء عاطفة حب . ومعنى العطف الحب

***

وهنالك عاطفة ثانية ... لتتخيل ما يولده فينا مرأى العصفور ناشراً جناحيه وهو كنقطة في الهواء ، ولتحس أية عاطفة تمرونا ونحن على جواد يعدو خبباً ، او في زورق يخوض العباب اللجي او في زوبعة رقص ومرح . كل هذه الحركات تولد ما لا أعرفهُ من عاطفة اللانهاية ومن رغبة لاحد لها ، ومن حياة تائهة ، ولا أدري ما هي حاجة الذهاب بدون إياب ؟ وحاجة الضياع في هذا الكل ؟ وهذه الافكار المبهمة تدخل كمادة جوهرية في الحالة التي تسبب لنا هذه الحركات ، وتمثال (آدم) « لميشيل انجلو » الذي يتيقظ للحياة بمديده — بدون نظام — الى الاشياء ، ناظراً ما حوله . وهذه الحركة وحدها تترجم بشكل منظور عن كل اللانهاية في العالم الذي وقعت انظاره عليه لأول مرة

***

واذا كان الجمال السامي في الحركات هو الجمال الذي يترجم الحياة الوافرة الغنى ، فالامكان القول : ان الجمال هو مزج القوة بالعطف وجعلهما شيئاً يعبر جميعه عن الارادة الاكثر شدة والاكثر عذوبة ورقة . هذه الارادة ليست البتة بالاشياء السطحية ، ولكنها في معاناة الاشياء الجدية والكائنات الاخر ومعاناة نفسها . تضع قوتها كلها في خدمة حنانها

النفس تسمو الى اعلى ما تحب به . ومن هذه الناحية تجد الفن يلمس الحقيقة ، بل هو الحقيقة وحدها ، وفي عاطفة الاعجاب يشترك الحقيقي والوهمي ، والكون وظهوره . أريد ان استحيل الى من اتأمل فيه ، وأن اكون مثله في بعض النواحي وهنا يتحقق مذهب افلاطون بقوله : ان الجمال هو ان نعدو أحسن وأعلى